An-Nahar

الثلثاء ١١/١٢/١٩٨٤

جاد الحاج، نقطة للدخول إليه قبل اختفائه أو صمته

احد الاشياء المثيرة في الشعر هو تلك الطاقة التي يسلطها احيانا على قشرة التجربة العادية، او ما اصطلحنا على ترتيبه بهذا المعنى، فيفتح فيها شقوقا او ثغرات لم تكن من قبل، في سعيه الابدي لاضافة مساحات جديدة من الخارطة الحياتية الى محاله. ما كان "زوائد" واقعية لا سحر فيها، وصوتها الخافت لا جدارة له بالسماع، يصبح، فجأة وبقدرة الانتباه الذي سلط عليه، مركزيا، شعريا، جزءا حقيقيا من نشاط المخيلة. هذا هو التموضع الحقيقي "للدارج"، من حيث التجربة، لا اللغة، اذا اردناه في حسابنا هنا، واذا ربطناه بمشروع الطموح الشعري الجديد.

★

جاد الحاج، في "واحد من هؤلاء" (★)، يفهم ان "الوضع" الذي يستيقظ الشاعر ليجد نفسه فيه، كل يوم، بسط كمعادلة "اسأل لافهم" التي ترد في قصيدة "الفأس". وبرغم ان هذا الوضع نتيجة تعقيدات لا حصر لها تورط فيها الشاعر (او القناع الذي يتبناه في القصيدة احيانا) فهو محصلة حياته بالضرورة. وواجبه الاول، اول شيء يفعله في الصباح، هو تفريطه الى اجزاء التجربة وكسورها ليجد الشرط الاساسي، ليطمئن الى الفص المركزي، ولئلا يضيع:

اسأل لافهم
واشرب
لئلا يثير الجواب ردة فعل
اعجز عن احتمالها

واذا كان صاحب الصوت في هذه القصيدة المعنية (جاد الحاج، على استشراء صوته الشخصي المميز في اكثر شعره، متقمص حاذق لاصوات اخرى مختلفة) يتشبث بهذا الهدوء النسبي في اللهجة، بهده المنطقية الظاهرة التي سرعان ما نكتشف انها تكتيك محتسب في وجه ما سيأتي، ايا كان هذا - فهو ايضا، وفي بداية القصيدة، سبق له ان تساءل:

ماذا يفعل رجل اجفل من حلم
حاول تذويب معدن بعينيه؟

يحدث هذا في اغلب القصائد: صوت مركزي عالق في وضع، في متاهة موضعية يشير لنا الى ابعاده السحيقة في زمن وفي مكان، الملتمة هنا وهناك. ومن كرسيه المربوط بالحبال الى اوتاد التجربة او الحلم، هناك دائما نقطة في تلك المتاهة يدعونا منها للدخول قبل اختفائه او صمته. ونحن لا نكاد نقاوم الاغراء. تنتهي قصيدة "الفأس" مثلا، بحدث جانبي عارض يبدو وكأن القصد منه ان يمسح آثار كل ما سبق ان هيأ له، بحركة عفوية تعيد تذكيرنا بالاشياء الاساسية الملحة، الواقفة دائما في انتظارنا بعد ان ننتهي من الحديث او الهذيان او الاعتراف او الكتابة وقبل ان نختفي في انشغالاتنا الصارمة:

كنت انقل هيكلي
المكسو بهيئتي
في السوق
واشتريت فأسا
للشتاء.

الحركة تحدث لذاتها، والتجربة لا تحتاج الى ان تكون اكثر من فعل، "الوضع" في هذه القصائد هو حقا خطاب الشاعر، تطلعاته التي تريد ان تتجانس وتصل. ولانه يريد ان يفلت من سجن محدودياته، من الافعال المقيدة، فعليه ان يتوجه بكلامه الى .تلك الافعال. الطاقة التي يستنفرها في هذه العملية عضوية اذن، تخترق الشكل وتستمد قدرتها على الاقناع من ثقل الاختبار. من الواقعة التي تحمل وزر نفسها. وجاد الحاج شاعر يفهم قيمة الفعل وحده، دون تطريز او حاجة الى بلاغة عالية. لا يبذخ، واحيانا الى حد الشحة، ولكن من اجل ان تظهر القصيدة نحيلة، لا شحم على عظامها، تتحرك بخفة راقصة تمرنت جيدا وفي الخفاء على فن الرشاقة، نحو المداخل الاكثر طواعية في عالم القارىء.

وعلى عكس التيار السائد في شعرها (السائد حتى هذه المرحلة، وسيبدأ بالانحسار مع ظهور الشعراء الجدد) نجد جاد الحاج يحاول ان يتحاشى الشعر المتعالي، المنطوي، دائما، على "قضايا" كبيرة ورنانة وعلى الحدية المترمتة. ويحاول ان يتحاشى ايضا، قدر الامكان، التجربة من اجل ذاته. يقتنص الصوت اليومي والافعال التي لها مرجع في زاوية شارع، في مقهى، في طابور انتظار، والتي ترمي مركز ثقلها على الصدفة كما يفعل النرد تحت عيني مقامر يعيش على استثمار الصدفة. ولا ينسى الفكاهة. اساسه ثابت في الاشياء والصغائر. في يوم عابر، في رغبة غير متحققة، في غربة تطحنه ويتصدى لها مسلحا بصوته. بضع كلمات، حكاية هنا، فورة غضب هناك.

متشرد في الوقت كما على الشاعر ان يتشرد دائما:

الوقت يشفي كل شيء
حتى حياتك المنسدلة
كشعر عجوز غريقة

وجاد الحاج ايضا يكرس قصيدة لعصفور صغير حدث ان رآه واقفا على تلك .حدث خطير ولا شك! تحت السطح، هناك دائما قروي هجرته قوى خارج ارادته يجمح كالفرس عند رؤية شجرة. يرفض، حتى وهو في اعماق نفق المترو في اية مدينة يحدث ان علق فيها، الا ان يتذكر او يغني. في "قريتي":

حيث البلبل زحال يقود الفلاحين الى العراك
حيث تشتري القصر والسماء بقشة
حيث الدكاكين مولعة بالغرباء

وفي "ذئب الحنين" نجده ينحل الى عناصره الاصلية. انه يعود الى النبع المخرب الذي يكاد يجف الا من قطرة اخيرة:

هذا الحنين، هذا الوشم، لا
يبرد، لا تألفه جلدتي
مرساته دوما
الى قعري
ما عدت اطيقه ابدا
يعوي كذئب جائع

وكان قال في بداية المجموعة، كأنما بباعث الغريزة:

كيف لك ان تلجم عواءك
وتغني؟

الحرب اللبنانية ونتائجها القاصمة هي الحدث الرئيسي الذي يستقطب، في كل لحظة، غربة الشاعر ويتخذ ابعاد عاطفته، يكون محكا قويا لها، يستنفر ويستنزل. انه جدار ومرآة. في "النهاية الاخرى للبرد":

وما زلت واقفا في الطابور
الثلج يأتي ويذهب
النوافذ تشتعل وتنطفىء
النهارات تتوالى
والليالي
احيانا كثيرة انسى
ما الذي اريده حين يصل دوري،
ما الذي سأقوله؟
الطابور طويل
ولا بد ان اتذكر
تلك الكلمات القليلة.

وجاد الحاج، كمن دفع الثمن وحاز بطاقة الدخول والقول، يتذكر، مرة بعد مرة، تلك الكلمات القليلة. صارت غربته مرئية الان، والى هذا الحد، كصورة طبعت نفسها على قرنية الذاكرة في شكل متسلسل منذ بداية التشرد وفي اللحظة الاولى للغربة:

في هذه الحروب
لا احصي القتلى
المتخثرين في الانهر
والسواقي
او الاحياء
المرتعشين في الملاجىء.

ويضيف هذا القسم، العتاب الجريح، التهديد الوحداني، الصرخة المرتدة على نفسها، الرد الممكن الوحيد:

ولن آكل
لن اطعم احدا
ما حييت.

واحد من هؤلاء يحس جميع القواعد الخفية في اغترابه وتجواله، يلطم ابعاده النفسية بعضها ببعضها، بتلك الحاجة العميقة التي تريدنا ان لا نصمت، ان نقول قولتنا في وجه المصاعب، لاننا دفعنا الثمن، لاننا اكتسبنا الحق.

سركون بولص

(★) "واحد من هؤلاء"، جاد الحاج، في "منشورات سارق النار"، اثينا، ٩٠ صفحة من قطع وسط، الثمن ١٥ ل.ل.

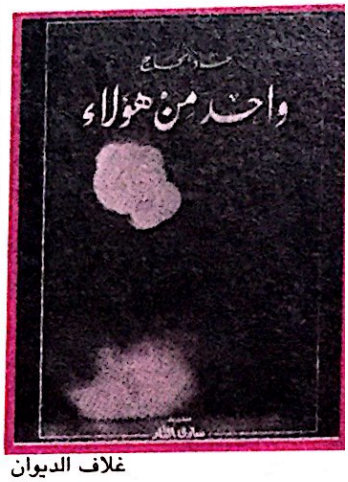

غلاف الديوان

جاد الحاج
في «واحد من هؤلاء»
أسفار وتشرد يتمددان كالهاوية!

□ كان كل ما حوله ينبّه الى سؤال او كارثة، يمعن جاد الحاج في إثارة هذه الفوضى من الاعتراضات. فحتى طفولته التي يستعيدها في (واحدٍ من هؤلاء) تزوغ الى «شقاوة» تعمد الى انتهاك علاقات (زاجرة) سوف تبقى في مخيلة الشاعر لتحول دون «رغباته» التي يتلمسها بصراخ حاد. حب ونوبات وطن وحنين لا تجد لها منفذاً في قسوة كل ما يجري. كان هذه الطفولة لكي تعكس تغربه الاختياري في عالم تظهر فيه النوازع الجسدية والروحية، التي تفصح عن حقيقة الشاعر، اخطاء وانحرافات فادحة:

«لا أليق ببيتٍ
منذ هربي من صوت أبي
وسوط جدي
وسطوة سقف...
غير لائق انزل مع اللائقين
نضمد اللغم
ونشعل الفتيل
علكم تتبعثرون
كالتبغ على الورقة». (ص ٤٠ ـ ٤١)

إن هذه «الشقاوة» التي تحاول هنا ان تعترض حالة «الحصار والاحكام» لا تلبث ان تجد تفسيرها في لمحات ذكية وعابرة (كان الشاعر يتنبه اليها عرضاً!) لتبينّ حقيقة الانحراف المتعمد في مواجهة علاقات تمتنع (باستمرار) خلف ابواب واسيجة محكمة:

«حين كانا علي بابا مراهقاً
سلبت لبّه الاقفال». (ص ٤٢)

ولكن التلميح الذي يسوقه هنا (الايهام باستقراء فرويدي لهذا الانحراف) ليس في الحقيقة اكثر من استطراد ذهني في مناوأة صريحة لا تزال تستغرق تفكير (وعيني) الشاعر في كل ما يقع عليه:

كان حلمي وانا صغير
ان ارى الوجه الآخر
للغيوم. (ص ٤٤)

ويتخذ «الاعتراض» الذي ينقله الشاعر وجوها متعددة لطفولة تعبث، وتسال كل ما حولها. فـ «اللعب»، ايضاً، هو احد حالات «الضيق» الذي ينتابه بصورة هزيلة (ومريرة) في مخاطبة الاشياء التي يتعودها (كما في «عصفور على السلك»):

ماذا تظن نفسك؟
منارة؟
أم راقصة تغسل إبطها
طلْ
وإلاّ. (ص ٢٧)

وإذا كان الشاعر يختار لطفولته هذا التغرب، فانه سيرزح تحت وطأة الحنين، الذي يعاوده إليها في معالجة تغرّبه القسري. فالقرية لا تزال هنا: حيث الدكاكين مولعة بالغرباء /ومنطاده مليء/ بمنتصف الليل.. (ص ٣٣)، وذاكرته لا تزال تكبل قدرته على مواجهة (واحتمال؟) هذا التغرب:

ما عدت اطيق هذا الحنين أو
كلما تهافتت على ظلها شجرة، أو
رقص فلاحون في بيدر، أو
تلفت الفجر على رأس جبل، أو
استيقظ ابنائي تحت شمس غريبة.. (ص ٧)

إن هذه الـ «او» التي تقف في نهاية السطر الشعري، كي «تدافع» رغبة في استعادة تفاصيل حارة لا يستطيع الشاعر تملكها في اسفار وتشرد يتمددان من حوله كالهاوية:

بودي أن اكتب رسالة
إلى شخص
ينهض كالطير في الصباح
بعزم يرتدي قميصاً ابيض
الى صباح مزدحم بطيور
آمنة تأتي الى نافذته
غير هارب
غير معرضٍ للارق او الغرق.. (ص ٨)

ولعل هذه المحاولة التي تتعثر دائماً في مدافعة حدود وكوابت صارمة هي التي تجنح به الى اساليب لا يمنحها الشاعر (لا يريد ان يمنحها) ملامح تشكلها النهائي. ففي حين يستفيد الشاعر لغة جبران (الانشائية) لاستدراك حالة من التوحد (او الاستقرار) في معالم الحياة والطبيعة:

«فيثارات عائمة ـ شلالات مستلقية...» (ص ١٥)

او «.. يمسك كتاباً ابيض
مسطراً بالشعاع..» او بعض ما نقع عليه في حواشي «الغجري»، نجده يذهب بها في تداعيات شديدة الاستجابة لعلاقات ممعنة في تسلطها، لتتحول الى لغة عابثة ومعرضة لاتستقيم إلاّ في ذاكرة الشاعر ومخيلته، اللغة هنا محاولة. والحالات التي تنقطع او تتبدل باستمرار لا تدّعي تصوراً مسبقاً ونهائياً (خرجت عن كل سلك .. ص ٣٨) الاجوبة التي يسوقها الشاعر هنا (عبث ومناوأة وحكمة..) بين معترضين. والسؤال وحده يقود الى الراحة.

حمزة عبود

من الديوان

وما زلت واقفا في الطابور
الثلج يأتي ويذهب
النوافذ تشتعل وتنطفىء
النهارات تتوالى
والليالي
أحياناً كثيرة أنسى
ما الذي أريده حين يصل دوري،
ما الذي سأقوله؟
الطابور طويل
ولا بد ان اتذكر
تلك الكلمات القليلة
بعد كل شيء
انا هنا لأنني
مثل هؤلاء
أريد حياتي:
رغيف مستدير وطازج
آخذه كاملاً،
إلى حافة النهر
وأرميه فتاتاً
للسمك.

(النهاية الأخرى للبرد)

Scanned by CamScanner

الدستور تشرين الثاني ١٩٨٤

جاد الحاج في « واحد من هؤلاء »

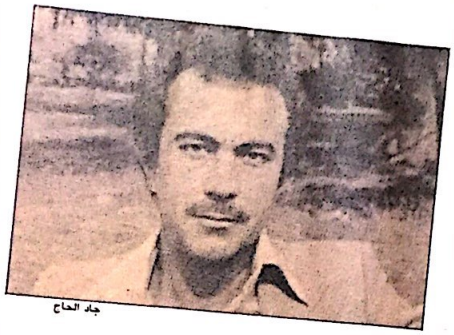

يطارد العاصفة وينام الوقت بين يديه

جاد الحاج

بعد صبر طويل ، لم يخل من معاناة ، يخطو الشاعر جاد الحاج خطواته الاولى في النشر المستقل ، المتميز ، بتسيسه في اثينا لدار نشر جديدة هي منشورات « سارق النار » . اعلان الدار عن بدء انطلاقتها هو إصدارها مجموعة الشاعر الجديدة « واحد من هؤلاء » ، الرابعة ضمن مجموعاته الشعرية

المسرح الذي تطلعنا الى مشاهده ، عبر عيني الشاعر في مجموعاته الثلاث الاولى ، يتضح هنا ايضا . في مجموعته الرابعة « واحد من هؤلاء » في صيغ غنائية اكثر صفاءا ، اكثر اقتصادا في المفردات لكن ابضا ، اوسع ايحاءا ، وفي المباشرة في التعبير مع تفادي حشد العواطف ، او الاسقاطات الجانبية على الاشياء والعلاقات ، الطبيعة وما فيها من نبات وحيوانات .

في بساطة يقدم الشاعر هنا وثيقة شخصية ، شديدة الخصوصية ، تتضح فيها ، افراح جسده الوحيد ، حيرته واكتئابه الصافي . يتجلى كل هذا في محاور هذه الحياة الخاصة : الغربة في الوطن ، المنفى خارجه ، الحنين ، المظاهر المتناقضة للحياة اليومية هنا وهناك ، عبر تنقلاته من بلد الى بلد ، من غرفة الى اخرى . نجد الكثير من احوالنا في غناء جاد الحاج الحميمي :

« انا
غدرني وطني
وغادرني
فاصبحت موجودا بالمراسلة
اكتب اسم قريتي على الجدران
ارسم صنوبرة وبيت قرميد
وشتيمة واسعة ..
اصعد وانزل ادراج السفارات
مثل جاب تقاعد وما زال
يجول صفر اليدين ،
انشيء اطفالي
في ضواحي المدن الغريبة » .

ليس مهربا ، تسليما بالموجود والواقع . فالوطن في الاصل ، انه الجسد الذي يطارد الافق ليصل اليه نقيا ، متجاوزا هذه المرة تضاريس الاستثنائي وما حصل من حرائق وعذابات . وفي هذه الرحلة الطويلة ، من الوطن واليه ، يقدم حكمة تجربته طوال سنوات :

قف طويلا
طيلة ما تبقى لك ان تقف
واطول !
مت واقفا
ظهرك جدارك
وجهك ارضك
المحترقة .

ومع ذلك فان النسيان يحتفظ بأثمن ثرواتنا ، ويكفي اي مشهد بدائي لتتداعى الذكريات ويتهيج الحنين متلهفا للصور الاولى ، حيث تنعم الطفولة بعالمها السحري :

ما عدت اطيق هذا الحنين
كلما تهافتت على ظلها شجرة ، او
رقص فلاحون في بيدر ، او
تلفت الفجر على راس جبل ، او
استيقظ اطفالي تحت شمس غريبة

بعد قراءة القصائد الاولى ، نتيقن ان محور الوطن ، الحنين اليه ، يشكلان الفقرات الوحيدة لهذا الغناء لكن سرعان ما يتجاوز الشاعر انطباعنا ، نتتبعه فاذا به يحول الوطن الى رمز يعبر عنه اي مشهد في هذا العالم ، اذ رغم :

لن استطيع الكتابة
عن مسائل اخرى
وسيكون من الصعب
دائما
مغادرة هذه القرية
فراري
يبلغ تخوم الفيانها
كانما اركض
هاربا من سماء

يوافق الشاعر ان اي ارض ، لها نبض الحقول والمراعي وعطرهما ، لن تكون فقط بديلا ملائما ومؤقتا ، بل ستحمل صوت الام ايضا ، مانحة الحواس والغرائز فرحتها الاخيرة كما الاولى :

امنيتي
ان اموت
كمن وصل قمة الجبل
فراى سهلا
هناك .

ولهذا فان العالم سيكون قريته الصغيرة ، جبلها وسهلها ، نباتها وطيورها .. اما السكان الاوائل فها هم جيرانه ، والذين يعبرون الشوارع ، الباعة والسواق ، رواد المقاهي واولئك الذين يهذون في الطرقات . ينتبه اليهم ، فهم ، ابناء قريته في النهاية . عن جارته :

تصرخ بشكل رهيب
في ساعة معينة
كل مساء
كلبها ايضا ينبح
بجنون
لكن صوتها هي
يفوق
اية كارثة : عواء ممزوج بخيب
وعندما تصمت
يعود العالم
الى رتابة فظيعة
افظع كثيرا
من صراخها .

وهكذا سيكتب عن العصفور والشجرة ، عن قلم أسود وقبعة وعاصفة ، عن مهرج ، ووعل ، عن الصقر والصياد ، عن المنارة ، والهرة والأفق وغيرها . سيكشف عن الشعري في مناخات هذه الاسماء والحالات . سنقرأ له :

« بدلا من الغضب
يضحك العراف »

وفي قصيدة عنوانها « فرويد » ، يستخلص الشاعر لؤلؤة نادرة من اسطورة نعرفها ، سنرى في اللؤلؤة رغبة الاعماق وبهجتها ، سنرى وجوهنا ، تماما كما رآه هو

« حين كان علي بابا مراهقا
سلبت لبه الاقفال »

وفي قصيدة « نعم » يصدمنا خياله بلمحة ، يحرجنا بهذه البساطة :

« في
القاع
بحر
يتجنب
الماء »

حتى لكاننا نستمع الى همس شاعر صيني قديم ، قضى حياته متأملا غصنا ليتوصل الى ، ليقبض على ، معناه النهائي . لنستمع الى صوت الحكيم :

« حنين الشجرة
للعصفور
يفوق حنين العصفور
للشجرة
لانها لا تعرف سواه
زائرا
وهو يعرف الهواء »

ليس هذا كان ما هناك . لابد من حقيقة اخرى ، لابد من وجه آخر ، بل لابد من وجوه للمشهد ، سيتوصل اليها الشاعر كاشفا عن واحدها :

جاد الحاج

« حنين العصفور
للشجرة
يفوق حنين الشجرة له
فهو لا يعرف
سوى الاغصان
ملاذا
من عصف الهواء »

لكن الشاعر لن يكرس جهده باكمله لحالة واحدة ، حالاته كثيرة في المعايشة اليومية ، الذكريات وما تمنحها المخيلة من رؤى في تركيبات مدهشة من تفاعل المفردات ، تاريخها ، وعلاقاتها . وسائل الحالات ايضا متوفرة ، فطالما يحيا ، يسمع ، يتذكر ويتخيل ، فان عواطفه ستقدم اليه مفاتيح تلك القلاع التي يغمرها الضباب والغموض . يؤكد الشاعر كل هذا بثقة :

« اذا الكآبة كنز لا يفتح
لدي زجاجات مغلقة
في القبو
واجوبة اخرى مفيدة »

انه حر اذن ان يختار من وسائل ، حالات واتجاهات هذه المملكة الشاسعة ، لن يعيقه شيء ، حتى اناه لن تحجز حريته ، سيلقيها جانبا ، بل سيقتلها ، اذا لم تفسح له في المجال :

« ــ تاكسي !
خذني الى مركز الشرطة
قتلت واحدا
سكنني كل هذه السنوات
ورفض امرا صريحا
بالاخلاء » .

اين يريد ان يصل اخيرا ؟ الى لا مكان . ذلك لانه لم يغادر ، وهو لا يريد ان يسافر او يرحل . انه في سفرة دائمة في غرفته في الشارع ، معنا ، مع هؤلاء واولئك .. انه في بساطة واحد « من هؤلاء » ، نحن ضمن هؤلاء واولئك الذين يهيمون في الشوارع الخلفية والضفاف البعيدة في الابنية والمزارع والاسواق .

في مجموعته الجديدة « واحد من هؤلاء » ، وصل جاد الحاج الى مشارف بعيدة دون ان يترك رفقتنا . من هنا ، ومن هناك ، تمنحنا قصائده خبرات ، مناظر وحكم ، تجعلنا ان نرى ما امامنا ، الامر الذي كنا غافلين عنه بلا حق ، بلا مبرر . تعيدنا الى ما في الاغوار ، اغوارنا ، من كنوز ومعارف وفضائل .

صلاح فائق

كتب

جاد الحاج

«واحد من هؤلاء»!

مناخ الحرية الذي يتخبط فيه جاد الحاج في ديوانه الرابع، «واحد من هؤلاء» الصادر حديثا عن منشورات «سارق النار»، يدفع السؤال القديم «ما هو الشعر؟» الى اقصاه، الى حد الاجابة عليه من داخله، حيث يصبح السؤال جواباً والأجوبة مجموعة من التساؤلات المحيرة.

فقد استطاع جاد الحاج ان يهضم مجموعة كبيرة من القطع المعدنية الصعبة دفعة واحدة ويدفعها من دون تزيين الى الخارج، ولكنه وجد لها نسقاً سحرياً يجمع في ما بينها ولم يكن ذلك في حسبانه. فهو يطل على الحالة الانسانية الشفافة، القاسية، الغامضة ليأخذ منها شيئا من الوضوح، الذي يعود ويوقع الشاعر، لا القارىء، في الغموض الكبير.

لعل جاد يشاء ان يجد في الكتابة معنى وجوده ومعنى الوجود. انه ينظر الى الاشياء البسيطة ويجمعها ويعيد تفريقها ليجمعها من جديد وفي نفسه سؤال يطل على الماورائيات بحسرة. فالقصيدة لديه حسرة كبيرة لما فيها من حسية هي في نزوع دائم الى السؤال الأبدي: «ماذا افعل هنا؟».

الحالات التي يتحدث عنها جاد، وكأنه يتمتم او يتلعثم، هي مسكنات لوجع دائم ولد مع الطفل وكبر مع المراهق وشاخ مع الشاب والرجل، وكلما امتد العمر في هذا الوجع كلما تأصل وزادت قسوته وسطوته. الحب مسكن، المرأة مسكنة، البحر مسكن، الاشياء الصغيرة والشاردة مسكنة.

انها الوحدة المتأصلة في الذات، على الرغم من الزحمة وحضور الآخرين، الحضور الذي يساهم في تحذير الوجع ودفع السؤال الأبدي الى الغامض في الذات البشرية الى المكان اللامحسوس، او المحسوس بامتياز لأنه عالق في اللاوعي، بل ان اللاوعي متشبث به.

يرفض جاد التحدث عن الوحدة: «وشئت ان اذكر شيئا عن الوحدة، كان قصدي ان ابدو بارعا، معتقدا وحدتي شيئا يذكر، بالغا حد الصفاقة في ظني ان ليلة بلا حب تكفي ليبلغ الانسان مرتبة المعرفية بالوحدة ويكتسب حق الكتابة فيها كما افعل الآن».. حتى يصل به القول.. «لست وحيدا بما فيه الكفاية/ لست وحيدا الى حد الوحدة/ كل ما في الأمر انني خائف قليلا..» هنا يطرح الصوت جاد مكابرا كعادته على وجهه. «ليلة الحب» التي يسعى اليها هي ليلة التخدير، الحب هنا ليس قيمة في ذاته انما غياب في حالة حسية تريح من الوجع الميتافيزيقي.

الموت حاضر في لهو الشاعر مثل حالة لا يريد التسليم بها. صرخة طفل لا يرغب في الذهاب الى المدرسة او دعاء بحار يعرف ان سفينته غارقة حتما ولكنه يعزي نفسه في شرب زجاجات النبيذ المتبقية. ان الوحدة، هنا، حاضرة على الرغم من الصخب والرفاق. لأن كل امرىء يموت وحيداً. وكل موت، مهما كانت المقتلة جماعية، هو موت فرد واحد بعينه.

يتهيأ لقارىء هذه المجموعة انها كتبت للغناء. كأنها جاءت من وحي قيثارة. الغناء، هنا، نقيض للطرب، على طرف حاد. لأنه نابع من تلوث الحياة، ولا يترفع عن ذكر الاشياء مهما بلغت ضعتها لأنها جزء من الانسان. انها اغنية بالمعنى الحديث، ليس من حيث التركيب فحسب، بل من حيث الاحساس الحاد بالعصر. تشعر انك تقرأ نصوصاً كان ينبغي ان يغنيها جاك بريل.

والشاعر، على الرغم من الصوت العالي الذي يبادر به، ماكر يخبىء حركته الشعرية مثل القطب الخفية التي تجعل الثوب جميلاً وانيقاً. ان جاد عرف كيف يعطي للفوضى اناقتها وللحالة صورة من دون ان يرسم ويجعل للوجع صوتاً جميلاً. ليس بالمعنى السادي او المازوشي. بل كمن يرى وجهاً جميلاً يموت.

بسام منصور

Scanned by CamScanner

لقاء "واحد من هؤلاء"

في الحركة الثقافية ـ انطلياس عقد لقاء عفوي مع الشاعر جاد الحاج المقيم حاليا في اليونان. وجاء ليرافق صدور مجموعته الشعرية الرابعة "واحد من هؤلاء" في "منشورات سارق النار".

اللقاء في صالون كنيسة مار الياس حيث اهدى كتابه الى جميع اصدقائه، وفي كل اهداء انطباع حميم وعبارة مرافقة. ثم تكلم الاب يوحنا صادر الرسام على جاد الحاج طالبا صفيرا ثم شاعرا:

"معرفتي بجاد الحاج الى اكثر من عشرين سنة. كنت اتلقى حينذاك دروسي في الجامعة اليسوعية واتعلم ابجدية الرسم في اكاديمية الفنون الجميلة واعكف على محترف الشيخ قيصر الجميل أنهل منه اسلوبا واسرارا. وطلب الي مرة رسم وجوه من خلال رؤيتي الطبيعة. فاتمشى بين التلاميذ ابحث في وجوههم، والتقط عيني ذلك الصبي بالبرنيطة المكسيكية الواقية من الشمس. كان في الحادية عشرة، منفردا بحياته ومواقفه، لأصور تعابيره.

بعد عشرين جاء بلحية كثة ولم اعرفه لأول وهلة. و"النهار" ارسلته ليتحدث الي عند قدوم الفنان صليبا الدويهي مع المغتربين. وكانت سنتهم.

الذكريات كالعلبة ما ان فتحناها حتى كرت حباتها، وها اليوم بيننا بشعره المكثف والحدث فيه يتحول انسجاما".

اوتار عود واكبت قراءة القصيدة، نقرها فنسان سعادة الذي قدمه جاد الحاج: "موهبة، ويشبهني لأنه مثلي تعلم الاشياء وحده".

عود كئيب بينما جاد الحاج الشاعر يرسم الحدث بحركة يديه.

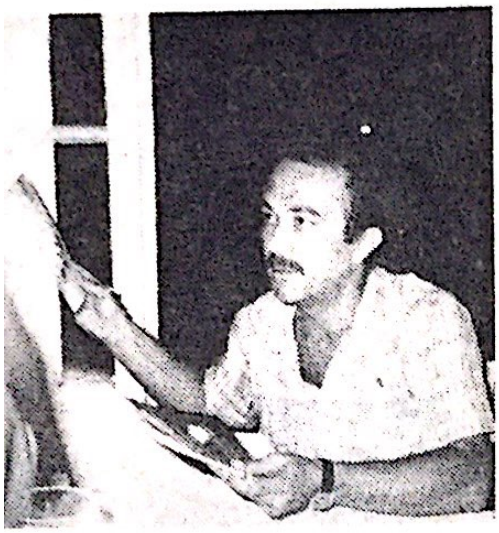

جاد الحاج.

Scanned by CamScanner

جاد الحاج في «واحد من هؤلاء»

حرية في القول وحنين يوحد اجزاء عالم مشتت

الموقف العربي ١٢ - ١٨ تشرين الثاني ١٩٨٤

واحد من هؤلاء. منشورات سارق النار اليونان، ٩٠ صفحه ١٥٠ ل.ل.

«واحد من هؤلاء» مجموعة جاد الحاج الشعرية الرابعة تأخذك الى القراءة بتسلسل ومودة وسلاسة. وهذه خاصية اولى من خصائص الشعر الجيد، هي خاصية الاستدراج، استدراج القارىء ودعوته الى المتابعة من خلال حوار داخلي تعقده معه، ومن خلال مشاركة تكاد تكون مشاركة في التأليف.

يفتتح الكلام الشعري بصيغة الاستفهام الذي يأخذ شعريا شكل الاستهجان والعجب، وكلاهما يؤكدان موقف الحيرة الذي هو خاصية ثانية من خصائص الشعر الجيد بل من خصائص الكتابة، خاصية الحيرة، حيث الاطمئنان والحسم يقودان الى انشائية وخطابية تستنفذان القول سريعا وتقودانه الى فراغ اللاكتابة. والحيرة ليست خاصية لشعر جيد فقط بل لفلسفة جيدة ايضا، وهنا ينعقد الفرق في الاسلوب، فبينما تعمد الفلسفة الى تقليب اسئلتها بين الاستدلال والاستقراء والقياس، وتتوسل العقل حكما ودليلا، يروح الشعر يتوسل القلب والحدس والعاطفة، ويطلق اسئلته دفعة واحدة في مهب وجود وسياق حياة يرتجل قراراتها ارتجالا وسط غابة من الاحتمالات ويشق طريقه على ملتقى مفارق متشعبة، ليكون القلب هو الدليل الوحيد والحدس هو الضمانة الوحيدة.. حتى الحظ. اجل جاد الحاج يرتجل وجوده حتى حدود الحظ وكأن الحياة رهان مستمر متكرر وكأن الخسارة واقعة حتما ما دامت الاحتمالات سوف تتراوح بين هذه النسبة وتلك؛

كيف لك ان تفرط وردة
براحة يدك
المليئة بالشوك؟
كيف لك ان تمتص
غشاوة البعد
بينك وبين العابرين؟
كيف لك ان تموت بحادثة عرضية
كأي انسان محظوظ؟

اذن ينحني الشاعر على نفسه بحنان ومودة الغرباء، ويخترع من داخلها بلادا بديلة لنفسه واهلا واصدقاء بديلين، وحيث الخصومة بين الذات والعالم المحيط خصومة اضطرارية، خصومة المكره على الدفاع عن نفسه بصورة متواصلة وحيث الوحدة والوحشة تنقلبان رثاء للذات وتعاطفا معها مما يذكر بالجملة الشهيرة للعراقي يوسف الصايغ في «اعترافات مالك ابن الريب»:

ادركتني سورة من رثائي لنفسي... فبكيت

الذعر هو المنقلب الاخر لهذا التوحد وهذه الغربة، حيث تغدو الكتابة نصف تعبير والصوت نصف صوت وكلاهما يقولان نصف اختناق دائم، نصف اختناق يميز الحنجرة العربية عموما لدى كتابها وشعرائها الذين يتوزعون في مهبات مختلفة للتعبير توزعا قد ينال الكاتب نفسه بين مجموعة واخرى، وهنا، عند جاد الحاج، نستطيع ان نقارب بين السطور الحالة اللبنانية التي تتفاقم في الخارج والداخل وتعيد انتاج نفسها وتكاثرها المأساوي المرير مستدعية نوعا معينا من التعبير او التصويت، هو كما يسميه الشاعر: العواء:

مكسور كعيون المفروزين على حدة في المرافىء
جوازاتهم جمر اسود
كيف لا تتشمم عرق اطفالهم
عيونهم الواسعة تتلقف لسعة الذل
كفهور عبيد.. تجلد.

البلاد في الداخل طرائق دائمة اذن تستدعي حنينا وحشيا مزدوجا للعودة وللايغال في السفر، الغربة والوطن وجهان لحنين واحد لمرارة واحدة، وحيث يلتقيان في الشجرة والصبح المنبلج والفلاحين والعصفور والساقية فانما يستدعيان الحنين ويهدئانه في الوقت نفسه، ليغدو حالة معقدة انفصامية لا يقوى الشاعر على احتمالها:

ما عدت اطيق هذا الحنين
كلما تهافتت على ظلها شجرة، او
رقص فلاحون في بيدر، او
تلفت الفجر على رأس جبل، او
استيقظ اطفالي تحت شمس غريبة،
او...
هذا الحنين، هذا الوشم، لا يبرد، لا تألفه جلدتي
مرساته دوما الى قعري
ما عدت اطيقه ابدا
يعوي كذئب جائع.

ليعطي جاد الحاج الكلام حريته في الانطلاق والتعبير، ويعطي الصورة مداها وحريتها في التشكيل، فتنعقد عنده على المعنى حينا وعلى الحركة حينا وعلى الشعور حينا اخر، وتتعثر بمفارقاتها الاليفة ما دام العالم كله بمتناول هذه الحرية، موزعا مبعثرا مشتتا، وفي الوقت نفسه عائدا الى بؤرة حنين تستطيع الصهر والتوحيد. وبمثل هذه الحرية في القول والتصوير يقدم لنا جاد الحاج عينة جميلة متقدمة من قصيدة النثر العربية التي باتت من الاشكال الشعرية والتعبيرية المكرسة والاليفة.

واحد من هؤلاء

عنوان المجموعة الشعرية التي صدرت حديثا عن منشورات «سارق النار» للشاعر اللبناني الشاب: جاد الحاج.

من اجواء المجموعة التي تتسم بالشفافية والهدوء، وانسحاب الخطابة القاتلة نقتطف:

«احيانا كثيرة انسى
ما الذي اريده حين يصل دوري
ما الذي سأقوله؟
الطابور طويل
ولا بد ان اتذكر
تلك الكلمات القليلة
بعد كل شيء
انا هنا لانني
مثل هؤلاء
اريد حياتي:
رغيف مستدير وطازج
آخذه كاملا
الى حافة النهر
وارميه فتاتا
للسمك».

اخبار ثقافية

الكفاح العربي
١٢ - ١٨ تشرين ثاني ١٩٨٤

الثلثاء ١٦/١٠/١٩٨٤

جاد الحاج من الساهرين وفي القصيدة بوحي وخرافي

جاد الحاج واحد من هؤلاء، بل من اولئك الشعراء العائشين، من الذين لا يركنون الى منفى او غربة او يستسلمون لحالة، لامرأة، لثبات ويقظة؛ انه واحد منهم هو اولئك جميعا. تجده هنا وهناك وهنالك ايضا. ولا تجده لا هنا ولا هناك ولا هنالك. على تنقل وعلى رحيل، من منفى الى منفى، من مدينة تضيق الى مدينة تتسع. يبحث عن نفسه وعن صورة جديدة، كلما وجدها رآها قديمة. هامشي حتى الادمان. لكن واقعي وحالم. يهذي ويخربط ويحتج ويرفع صوته احيانا. جريء ويائس. شعره صورة عن حياته واضحة، وعن همومه اليومية والتي تتخطى الحدود الاليفة. شعره مساحته الوحيدة للتنفس والاحتجاج والكلام المرغوب او غير المرغوب.

انه واحد من هؤلاء، جاد الحاج، بل من اولئك، الساهرين في ليل العالم وعتمته.

★

● بين "قطار الصدفة" الذي صدر في ١٩٧٣ وكتابك الجديد "واحد من هؤلاء" (١٩٨٤) مسافة عشر : كيف قطع جاد الحاج الشاعر والانسان هذه المسافة؟ ماذا فعل وماذا لم يفعل؟ ماذا قال وماذا لم يقل؟

- هذا سؤال في حجم عشر، واي عشر! كان الله بعوني. لو قلنا انني شجرة فالسنوات المنصرمة كانت رياحا قليلها هادىء وطيب واكثرها اعصار. لكن حظي ليس كله سيئا بالمقارنة مع الجيل الذي "سطلته" المقتلة وهو بعد طري، ولم تكتمل احلامه ولا تكاملت امانيه. بل وضعي افضل. انا عشت الستينات الذهبية غجريا، ثوريا، متمردا الى حد الصفاقة - في رأي المجتمع - احيانا، صحيح، لكنني امتلأت بالمعايشة والانغماس وارتويت فتشددت اغصاني ونزلت جذوري في عمق الارض. حتى اذا بلغت السبعينات المشؤومة كانت قناعاتي وطيدة وموقفي من الحياة والفن على وضوح. وفي منتصف السبعينات بدا راعبا في عيني ان كل الاحلام التغييرية التي حملت جيلنا على كف الاقتحام الحقيقي جسما وروحا آخذة بالتعرض لاضطهاد وحشي هب من كل حدب وصوب. لماذا؟ ماذا يريدون؟ لماذا لا يسمحون للبنان بالاستمرار لبناء تجربته وعناق مصيره ولعب دوره؟ اهو خطير الى هذا الحد؟ كنت اعتقد ان محيطنا لا يضمر لنا الشر وان العالم سعيد بفرقعتنا فكأننا فيه المراهق المتألق في وسط عائلة من العابسين المضجرين. الا ان الانياب سرعان ما ظهرت والمخالب امتدت من كل الجهات للمساهمة في تفجير تناقضات طالما أمنا ان الزمن طمرها والجيل الجديد مد فوق قبرها قشرة صلدة من القناعات الجديدة ورؤيا الغد. كلا. اخذونا ونحن بعد اجنة في مقاييس التاريخ والتطور. وطننا لم يكن قويا في كل مواطن منا بالقدر نفسه، فانفرزنا قبائل، طوائف، عصابات، وسقطنا في هذه الهاوية.

تمزقت كثيرا وما زلت اتمزق كل يوم يا صديقي. في بداية المقتلة فتشت عن صف اقف فيه فانا من طبعي اكره الوسط والتوافقي. هنا يتدخل الشاعر في الانسان ليحسم اللحظة، فالشاعر لا يستطيع، في رأيي، تجزئة الحقيقة والشاعر لا يعرف قبول البشاعة على انها الامعاء الحتمية للجمال المنتظر. لذا رأيتني مسلوخا، مخطوفا، مبتعدا عن كل المدارات الجنونية التي تلقفت بلدي.

اشتغلت حطابا، امضيت معظم النهارات المقصوفة بالمدافع في الغابات، ارفع جثث الاشجار المصابة واقطعها. لكن شيئا فشيئا لم اعد احتمل. هروبي في الداخل ما عاد يكفي لجلاء الرؤية. صرت اقشع ضبابا وغبارا وقرفا بيني وبين الناس. بدأت اكره الجميع. الكلمات المنطوقة باتت تبصق في وجهي. وصوتي المخدوش بالغضب والحنق راح يتحول الى فح يهددني، فهاجرت. فرنسا اولا، مربط قنوطنا، ثم بريطانيا، لخمس واخيرا اليونان. كبر اولادي خارج المقتلة واعتبر هذا وحده ايجابيا. فانا علمتهم لبنان المدرسة الذي نشأت على حلم العيش والبقاء والبناء فيه، بلا طوائف ولا احقاد ولا مذابح ولا "سنوبيسم" يثير الغثيان مما نراه اليوم فائشا كالقمامة في مجتمعنا. ولذا اعتبر اولادي خميرة للبنان الغد. اتمنى ان يكون مجمل عملي وقولي وحضوري ايضا من هذه العجينة.

اما اين اجدت، فاعتقد في عمق اعماق اليأس المحترق الغاضب المتأجج، بصريف الاسنان، والدمعة متجمدة في العين، مالحة الى حد العلقم. في هذا النوع من القصائد حيث ينبج الشعر كنبع محبوس في صخرة فلت بشكل ومضمون متناغمين ما اردت قوله بالضبط وبدقة.

● ما زالت تتحرك قصيدتك في اطار اليوميات الكئيبة والتأملات العابرة في اطار الوصف الطريف الساخر والحميم، في اطار الاتهام والاحتجاج والعبث والسأم : كيف تنظر الى القصيدة ومداها المفتوح على هذه الاطر التي سميتها؟

- القصيدة لي مرآتي المفقودة. ارى فيها لمحة من تجمع ذرات كينونتي. انها الشاهد الوحيد على براءتي من اختراع الموت. ولذا برغم نثريتها المبسطة الى حد اللصوق بالمنطوق العادي والدارج نراها غنائية في تكوينها البنائي وطرحها الفكري. وهذا الشكل يتوطد ويتقوى يوما فاخر. تأثراتي السوريالية تتبدد. يتضح توافق تفكيري مع صخب خيالي وابتعد عن مسألة العبث المجاني والمؤثرات اللغوية وبهلوانيات الغموض التي اخذت نصيبي منها في البداية.

وشعري من هذا المنظور يتجه الى خطين : البوحي والخرافي. الاول مباشر يخاطب او يروي حالة موحدة في القصيدة الواحدة دون تورياب، يتجه كالسهم الى قلب الهدف، او كلكمة محكمة بعنف، يتسلل بهمسة مباغتة كصفعة باب دفشته الريح. ومعظمه وجد اعترافي حتى الان. والثاني مجموعة ابتكارات، في صراحة، اتساءل من اين يحق الشيطان ثاني؟ ما هي مصادرها ومراكز تجمعها واهدافها التعبيرية.

● في النهاية، هل تعتقد ان ثمة جدوى من العمل الشعري، ما دام شعرك مفتوحا على الحياة، على ايقاعها وتمزقاتها : ما جدوى الشعر في زمن الانهيارات الذي نعيشه جميعا؟

- يستطيع الشعر ان يكون عنصر مقاومة وان يكون ايضا عنصر فرار وعبث. المهم ان ينجح في اصابة هدفه والاصغاء بانتباه كبير الى الصوت الداخلي الذي يحمل القصيدة عبر القلم. في حالة اليأس اجد قصيدتي تطرد القنوط وهي تعانقه، تناومه، تشربه وتتشرب مرارته حتى اخر قطرة. وفي زمن الانهيارات الذي تشير اليه، اين خشبة الخلاص؟ بم نتشبث يا عبده؟ لعل الجدوى الوحيدة المتبقية للشعر - في وطننا العائد في نظري، الى حالة ما تحت الماء، انه خشبة رجاء طافية على السطح نغرز فيها اصابعنا، نسمرها، ولتأخذنا العاصفة حيثما تشاء. كان في حلمنا جميعا ان يتحول عملنا الى خبز للخيال وان نعطيه بسعادة وحب وعطاء، وان نحيا في بلاد طبيعية ونبني ثقافة ونعايش نهضة. غير ان قدرنا يناقض كل ذلك وشعري يجهل الاغتراب عن كل هذا، فبقدر ما ابتعد واقعيا عن الجغرافيا تراني اقتربت من دقائق الواقع الجغرافي الى حد اللصوق بادق التفاصيل.

● تطل في شعرك، عابثا ولاهيا وفوضويا وغاضبا وساخرا وكأنه امتداد لحياتك الصاخبة بعبثها وغضبها ولهوها : الى اي حد يستطيع ان يستوعب الشعري الحياتي؟ وهل تلغي الحياة الشعر؟

- اعتقد ان الشعري يتأمل الحياتي ولا يستوعبه بقصد هضمه والتغذي به في شكل فيزيكي او بيولوجي او بكتيري. لان وجود الشعري سابق ومستقل ومميز عن اعراض الحياتي. فالمتصوفة والنساك والسورياليون والمنعزلون في هلوساتهم ورؤاهم الخاصة المغلقة المكيفة بكوابيسهم او احلامهم، هؤلاء ايضا يمكنهم ان يكونوا شعراء ومحدثين، معاصرين. من هنا ان الحياة والشعر كخطي القطار، لن يلتقيا ولن يفترقا الى الابد، ولن يكون دونهما سفر. هناك محاكاة كما بين عصفورين، يتواجهان فترة، يتماشفان، كل يمنح الاخر رحيقه ثم تخلو السماء من جديد، يطيران، وتعود هي... فقط زرقاء. لحظة الشعر، في رأيي، صدى يتوحد بالصوت، ملمح من رعشة ابداع ما، لم يكن ولن يكون مثله.

● لندخل في تفاصيل العملية الشعرية : كيف تحدد علاقتك بالقصيدة وتقنياتها؟ كيف تكتب؟ في اية حالة؟ كيف تبدأ القصيدة لديك وكيف تنمي؟

- تحصل حالة تجمع تراكمية في الداخل يصعب كثيرا تحديد فصولها وتغيراتها حتى لكأن ثمة مغارات متصلة تفرغ الواحدة في الاخرى خفافيشها او فراشاتها الى ان تبلغ نهاية المطاف شاطىء الكتابة فتشق لنفسها لحظة، ساعات، ليالي بحسب قوة اندفاعها وحجم هبوبها، وتخرج على هيئة كلمات. وقولك : "لندخل في تفاصيل العملية الشعرية" يبدو سهلا لسامعه كأننا سنزور بعد قليل معملا للتعليب والتوضيب ومعنا دليل الى تفاصيل عمل الآلات! لكن سحر الشعر ووقفته الوقحة، في نظر البعض، على شرفة النبوءة في سر ولادته وتمكنه المذهل من العيش والاستمرار في وسط محيط عدائي. فالمجتمعات على مر العصور نظرت بالتوجس والريبة الى الشعراء وعاملت الشعر معاملة شرسة. لماذا؟ ربما لانه كشاف الداخل يخترق القناع السوسيولوجي عارضا للروح معترضا على الموت بكل وجوهه واحتمالاته.

● في مجموعتك الجديدة، ماذا حاولت ان تقول؟ هل استطعت ان تقول ما اردت ان تقوله؟ وما الجديد الذي اضفته الى نتاجك؟ واين اصبحت الان من هذا النتاج؟

- حاولت في المجموعة الجديدة طرد الشرح النثري الملازم لطبيعة البوح وتحويل القصيدة الى جسم ينبض برعشة متوهجة. فتخبطت بين التشذيب القاسي الذي يمارسه الناقد في تنزق وسخرية، وبين ميلي التلقائي الى القول والروي. احيانا قلت بالضبط ما اردت واحيانا قلت ما لم انوه مستسلما لاستطراد الحالة الشعرية. وكانت الكتابة اشبه برحلة الصياد : عملية موازاة بين الهدف والسفر. اما نوع الاضافة وكمها فيصعب الان تحديدهما، لانك تحدد نسبة الى ما سبق فقط بل ايضا الى ما سيحدث.

الان انظر الى "واحد من هؤلاء" بشعور سديمي، سباتي، غائم، كأم تلقي النظرة الطويلة الاولى على وليدها. كيف اعرف ما الذي اضفته؟ الصوت فيك واحد والكلمة على فمك هي هي. ان قلت حبا، رعبا، غربة، شوقا، غضبا، او رويت خرافة، سرابك واحد ووحدتك ثابتة كالنهاية. لعلني، تقنيا، توصلت الى تماسك نغمي افضل واقوى من اي وقت مضى، لكنني اميل الى ترك هذه الكرة في ملعب النقد.

★ حاوره : عبده وازن

(★) "واحد من هؤلاء" المجموعة الرابعة. بعد "قطار الصدفة"، ٢٦ قصيدة، الكتاب الثالث. عن منشورات "سارق النار"، الدار التي اسسها الشاعر.

جاد الحاج "واحد من هؤلاء" وجدول لم يضيّع منبعه

استطاع الشاعر اللبناني جاد الحاج في مجموعته الشعرية الرابعة، الصادرة حديثا (★)، تبيان جوانب الابداعية الشعرية حيث تفاعل عنده الشعر وفلسفة الحياة ايجابا ليخصب احدهما الاخر، ويدفعه في مجال التطور الفني المستمر.

وحين يقترب جاد الحاج من صدمة الواقع الرهيبة، يعتبر ان عليه رصد حالة وطنه المأساوية، وهو مسكون بهاجس الضياع، والموت، والاغتراب. ما يدعو للتساؤل، هل كان جاد الحاج يواجه رصامة الاكتئاب، والاهتزاز المصيري، عندما يستخدم في قصائده الانا الاجتماعية المبنية على العواطف الحقيقية، والمطامح التي يمر بتجربتها خلال حياته في مجتمع حقيقي معيوش. فالمعرفة والفن هما ركيزتا الفنتازيا في شعره، لاعتبارهما يمثلان قوانين جوهرية وعمومية، اكثر تجريدا من قوانين الشعور والادراك الحقيقيين. تلك المعرفة احاطت باسباب الانهيارات، التداعيات، وحالات العبث، واللامبالاة، والجنون. وتجسد ذلك الفن، في القصائد الستين التي تضمها المجموعة.

في "واحد من هؤلاء" يرتاح الشاعر في صراعه الحي مع الطبيعة ويعيد وفق رغباته الخاصة، ترتيب آثار هذا الصراع في انفعالاته وهدوئه، في انفلاشه وتقوقعه، مستخدما الرمز في قالب فانتازي اكتسب قوة وقدرة فائقتين على رصد الواقع بدقة لافتة، والالتحام وثيقا بالبيئة المعاصرة.

وصراع الحاج مع الطبيعة، متمثل بارتباطه الطفولي في الارض والجذور، في الوطن والقرية: "اكتب اسم قريتي على الجدران / ارسم صنوبرة وبيت قرميد" (موجود بالمراسلة ص٨). والطبيعة عينها في سائر القصائد، خلال المفردات والتعابير التي تنتمي الى عالم الارض، وكائناتها، وحيواناتها، واشيائها التي استخدمها اللبنانيون آمنين حتى اقدم الوافدون والغرباء على بعثرتها واتلافها: "اجتاز قريتين اجدبتا / وما نضبت فيهما الخناجر / منذ اخر مغربي / سحب بغلته عبر الاجران / والمخل / والزنزلخت / والحاووز / وشوالات القمح / والوزنة والوزان / وبيضة القبان" (انا قناص ص ١٣).

غير ان الشاعر وقع في الحيرة، والغرابة، والدهشة، بعد امان واطمئنان شديدين، غمر الضوء خلالهما ارضية بعض قصائده الصغيرة. واندهاشه من رؤية الفقراء، وخوائهم (بجميع انواع الخواء)، والمهجرين، والمهاجرين، والهاربين، و"النازلين ادراج السفارات" الذين يتوزع صيدهم كخبز المعجزة، والذين يصفقون هم لابتساماتهم في الظلام. هو واحد من هؤلاء المستهدفين جميعا بلا استثناء، الصابرين ابدا على الجراح التي خلفتها ايادي الصيادين في الصحراء. "اخذني الصياد الى الصحراء / شهر خرطومه ودار حولي / غير آبه للطرائد / بعدما لهث كافحى / هب يرمي عصفورا وقال: / - اسرع قبل ان يموت / كان في قفصه صقر يحب العصافير الدامية" (الصقر والصياد ص ٤٥).

واللافت ان اسم المجموعة، مأخوذ عن احدى قصائد الشاعر عمر ابوريشة ويعالج فيها الموضوع نفسه تقريبا ويختصر عبثية البير كامو: "امضي لشأنك، اسكتي. / انا واحد من هؤلاء" (ديوان ابو ريشة ص ٢٢). الى ذلك، استطاع الحاج شعرا يتناول فيه العلاقة الجدلية بين الاضداد (لكون هذه العلاقة موروثا فلسفيا)، ويؤكد الارتباط الكينوني بين الاشياء والكائنات، وبين البشر انفسهم، وتعتبر "العصفور والشجرة" (لاسيما قسمها الاول) من افضل قصائد الشاعر: "حنين الشجرة للعصفور / يفوق حنين العصفور للشجرة / لانها لا تعرف سواه زائرا / وهو يعرف الهواء" (ص ٣٥).

"واحد من هؤلاء"، التفاتة اكيدة الى الوطن في محنته، ارادها جاد الحاج معبرة، واعية ابعاد المستقبل والمصير، ما يعطينا انطباعا واضحا ان الشاعر الذي حمل هموم لبنان في تنقلاته المستمرة، وهجراته المتقاربة، استحق لقب: "الجدول الذي لم يضيع منبعه".

محمد زين جابر

(★ جاد الحاج: واحد من هؤلاء، ٨٧ صفحة، من القطع الوسط، طبعة اولى ١٩٨٤، منشورات سارق النار (لم يذكر المكان).

واحد من هؤلاء

Scanned by CamScanner

جاد الحاج، ذئب الحنين يعوي

يبكر الشاعر جاد الحاج دائما بحنينه ونزوع العودة الى البيت، الى النبع الاول ولكن، غالبا، يتشاغل عن همه الاساسي برؤية اشياء مماثلة ومتشابهة ومتنوعة وربما، هذه الحوادث والامور والاشياء والقصص بتفاصيلها والملامح يحتال بها على الوقت ليصمد في وجه المعاناة وهنا الهم هو رغبة لم تحل حتى لا يلتقي وهم اكبر من حقيقة لنا تلتئم عنده الصورة الدائمة بالمعاناة الشعرية والسؤال كيف ترك الشاعر المكان مرة (البيت ـ الباب ـ الوطن)؟ وكيف ظل طوال العمر والتحفات يعاني التحسر، واستحالة الرجوع الى وهم يشبه الرغبة من تناقض وصيرورتها يرغب ولا يرجع يحلم، يحدق، يتذكر، يسرد ويتخيل تتملكه حالة الوقوف في منتصف الطريق والحياة والمعاناة ينظر الى بيت تركه هناك في لحظة تمرد، ولما مشى التهمته لحظات التحسر، وغمرته سيول التناقضات مع واقع متأرجح بين الاقامة والرحيل، الخيبة والممكن، الرجاء والمستحيل والواقف على الطريق بين نقطتين ـ الواقع والمأمول، الجسد والروح، الوطن والغربة ـ يروي ويروي ويروي.

ثمة عناصر مهمة يدور حولها البناء الشعري لجاد الحاج، خاصة في كتابه "واحد من هؤلاء" (١) ـ التناقض وتداعيات الحالة وعكسها (الواقع والحلم، الرغبة والخوف، المكان والسفر، سوما وهولاكو، الحرب والسلام) تكثر عنده دلالات المواجهة، واصداء الحالة، وطرفا النقيض.

"مت واقفا
ظهرك جدارك
ووجهك ارضك
المحترقة" (ص ٦، قصيدة "ظهرك وجه ارض")

ومن التناقض تمر الخيمة لتصبح تاليا فعل معاندة وثبات ومن الخيمة يخرج الكلام، الكلام نفسه ليروي الامور ويروي بشكل يغري العابرين، ببساطة التفاصيل، والفة الخيمين، وكأن الداشة للتو، وانت اول قادم ليسمعها من هنا، الصراع ومداه في التناقض بين الشاعر وعالمه والرغبات ثمة صراع يشده الى القعر، الى الجذور ولا يصل الى غايته بل يدفع الى الهروب والسفر وكأن الحنين حين يرده الى اصله والجذور، يرميه بعيدا الى مزيد من البعد والسفر ولو عدنا الى كتابه الاول "قطار الصدفة" سمعناه يقول:

"تركت بيتنا
كرامية تترك بيتها
فلا بيتها لها
ولا بيوت الطريق" (٢).

والآن، ماذا بقي للشاعر من ذلك الشعور الحاد الذي تملكه منذ اول مغادرة لم يبق سوى ذئب الحنين يعوي في كل الاتجاهات حنين لا يطاق يكاد يلتهم الطريق

"... [illegible]
هكذا... ان اعود وبي الحنين
الى مزيد من الاقبال والسفر". (ص ٧، قصيدة "ذئب الحنين").

الشاعر تطحنه المعاناة، ويفتته الحنين لانه لا يضبط العلاقة بمصدر الحنين لاسباب مختلفة ويلجأ الى الهرب الى الامام، ومن جديد السفر، وربما السبب على قوله "انا غبرني وطني وغاسرني" ولان الشاعر "فلاح حرثه الاغتراب". فلاح بدلا من ان يمشي في حقله كمنديل عروس يقتطف من ارض ما ويبذر وبدلا من ان يحرث ارضه يحرثه الترحال والاغتراب. والى ذلك، في شعره ذلك القلق العفوي المباشر تعبره الكلمات المنسابة بتآلف وطواعية ثم الانتقال المرتبك من حالة الى حالة من جو الحرب الى جو الضيعة، مفرداتها والاجواء ويمشي في تنقله الى محراب الضيعة ولكن خائفا مرتعدا من طبول الحرب ويمضي في تنقله (المكان ـ الخطر) من الضيعة الى الحرب والعكس حتى آخر الكتابة والمعاناة والعبارة والابدية وكأنه يدرك انه وبعد القتال واللصوص والتمثيل والفراغ والذعر والعبث يتخلخل نظام الطبيعة والاشياء:

"رأيت نهرا
راجعا
عن مصبه
واخرس
يفسر اسباب
الزلازل" (ص ١٥، قصيدة "انا قناص")

ثم ماذا بعد الخلل والتناقض والاستحالات؟ تأتي الطلقات والجوع وضياع الكلمة لا بل سجن الكلمة. وحين تقسو الحرب على المرهفين وتكسرهم، ماذا يفعل الشاعر بالحرب؟ والجواب

"في هذه الحروب
لا احصي القتلى

بل اشوي خمس حبات كستناء
بخمس فحمات ـ
اصابعي ـ
ولن آكل
ولن اطعم احدا
ما حييت" (ص ١٧، قصيدة "كستناء")

الشاعر في الحرب يأكلها وحده، واكثر من غيره. فلا حاجة للكتابة لان الحرب تقتلع الاشياء، وتعتصر الانسان الى اكثر من الخوف والندم. وتملأ قلبه وعينيه وذهنه بالاوهام والشكوك والهواجس. وفي تلك الخضم، كيف يقضي الشاعر وقته؟ كيف يمرر الزمن العاثر؟ وفي اي ظرف كان (الحرب، السفر، الصراع)؟ جاد الحاج يحلو في الطبيعة. يتأمل تحولات شجرة معرية، رقصة عصفور ملتاع الجنح، طلوع النهار، صياح الديك. وفي نطاق دائرته يشاهد تحولات وصورا ومشاهد كثيرة، ويروي بفيض عامر ومقدرة فائقة يحكي لحظاته مع الضجر وانعكاساته بصور طريفة ومرهفة وساخرة (تشتري الجريدة نفسها مرتين، تحرك القهوة عكس عقارب الساعة) افكار الشاعر في تماس مستمر بالتناقض ولذلك تقسو صوره والافكار بقوة فاضحة على نفسها وقليلا، قليلا ترق وتشف حتى تلامس اصوات البلابل وحفيف الفراشات ـ اي الاجواء القريبة من مكانه الاول، وبيته البعيد وقد تكون صورة من الذاكرة او من المشاهدات التي تتشابه والذاكرة واحيانا، يمشي الشاعر يتسكع فوق الطرقات الكثيرة الغريبة الى ان يقرأ "في شقوق الارصفة خطوط القدر". وحينها العالم يغرقه بالرتابة والضجر والخيبة الى الصمت المروع الذي يحاكي نهاية العالم ويقول ت. س. اليوت: "العالم ينتهي بالانين لا بالصخب". والصورة عنده مع صوت الجارة في قصيدة "جارتي":

"عواء ممزوج بنحيب
وعندما تصمت
يعود العالم
الى رتابة فظيعة
اقطع كثيرا
من صراخها". (ص ٥٦).

واين يهرب الشاعر من صمت العالم ورتابته، ومن تناقضاته وخيباته وحنينه الذي لا يطاق؟ وعدا تحولات الطبيعة والتذكر وسرد الحادثات ورويها والتسكع، ثمة هرب آخر مجد، الى الخمر والنسيان وحيث الاختلاطات والغياب الداخلي يشابه الخارجي، ويلتقيه:

"كلما فرغت كاسي
تتلفت اوردتي
كعابرين
باغتهم سيل" (ص ٦٤، قصيدة "بار")

ولا يكتفي الشاعر بحالة الحاجة والارتواء بل يستعد اذا هاجمته كآبة محصلة للرد المناسب:

"انا الكآبة كنز لا يفتح
لدى زجاجات مغلقة
في القبو
واجوبة اخرى مفيدة". (ص ٨٣، قصيدة "وسائل")

وبعد، ماذا يريد الشاعر من الانتظار والسفر والوقوف الطويل في الطابور؟ ماذا يقول؟ واي خطاب؟ وماذا يريد حين الزمن يعبر والليالي تمر:

"بعد كل شيء
انا هنا لانني
مثل هؤلاء
اريد حياتي
رغيفا مستديرا وطازجا
آخذه كاملا
الى حافة النهر
وارميه فتاتا
للسمك" (ص ٨٦، قصيدة "النهاية الاخرى للبرد").

ينتهي الشاعر الى ابسط اساسيات الحياة، الحياة الهانئة الآمنة والتي لاجلها، ربما سافر، او لبأسه من مرارة الطين وواقع الاقامة واد ينالها ـ الحياة ـ قد يتوحد بالطبيعة ويرميها واللحظات فتاتا للسمك والاستمرار ولكن من اين للشاعر ان يحس ذلك بعيدا عن مهده، بيته، مكانه الحقيقي، ومياهه الطبيعية؟ وهل يتوقف صراع المكان والسفر؟ المفروض والمرغوب؟ من هنا، عودة الشاعر الى عرينه قد تفتح افقا جديدا في عالمه الشعري ومعاناته الانسانية عودة قد تتخطى الحنين الى لحظة صوفية عميقة هادرة وغامرة باللقاء. وقد تضع حدا ما للصراع المكشوف الذي خاضه بين نقطتين. اما اذا استمر الصراع، فالشاعر بحسه يحزر نهاية صراعه كيف يكون:

"في نهاية الصراع
يصبح السيد الخرافي
مهرجا
والمهرج
قيصرا
دموعه
عطر". (ص ٣٥، قصيدة "مهرج").

والنتيجة، استمرار التناقض والمواجهة، خلل الاشياء واضطراب العالم والرؤية والادوار رغم العاطفة المشبوبة "والخيبة" التي يفوح عطرها بعيدا.

واخيرا، جاد الحاج في كتابه "واحد من هؤلاء" يستمر نزاعه الدائم مع هاجسه الاول (المكان ـ نقطة الوصول ـ الحنين الى البداية) ومنذ هروبه الاول تلاحقه لعنة الابن الضال بجنونه وتمرده واكتشافاته وطيبته وبساطته والمغامرة وبدءا من "قطار الصدفة" الذي ركبه ذات يوم حتى "فوضاه" وسيرته وصوره الذاتية، يشعر دوما حنينه الى المكان، وذاكرة مشرعة النوافذ واللحظات تخلط الذات بالموضوع. هل يرجع وتذبح له العجل المسمن؟ او يبقى في حسرة بعيدة، وشوق يتفتت وينكسر، وحنين لا يطاق؟

سليمان بختي